

مزاولة الفصاحة قراءةً وكتابةً وكلاماً

الدكتور محمد حسان الطيان

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها

وأكاد أقول: ولا الفصاحة إلا من يعانيتها، فالفصاحة معاناة ومزاولة، تشترك فيها جميع الحواس والمدارك، تبدأ بالسمع وتمرُّ بالقراءة لتنتهي بالكتابة والكلام الفصيح، فهي عمل متواصل للأذن والعين واليد واللسان، إذ هي تمرّس وتدريب يتبع الاكتساب والتحصيل، ولا يغني فيها اكتساب عن تمرّس، ولا تحصيل عن تدريب، إنما تحصل بمجموع ذلك كله، ولعل أثر التمرّس والتدريب أكبر من أثر التحصيل والاكتساب لما لهما من أهمية في نمو ملكة اللغة وتثبيت أركانها وتوطيد دعائمها، وكلما أكثر المرء من استعمال لسانه في ضروب من الفصاحة كان ذلك أطلق لسانه وأبلغ لبيانه وأعود عليه بزيادتها وبلوغ الغاية فيها.

روى المبرد في الكامل أن رجلاً قال لخالد بن صفوان: إنك لثكثرا! فقال: أكثر لضربين: أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإن حبسه يورث العقلة. وكان خالد يقول: لا تكون بليغاً حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادي قومك، فإنما اللسان عضو إذا مرّنته مرّن، وإذا أهملته خار، كاليد التي تخشنها بالممارسة، والبدن الذي تقويه برفع الحجر وما أشبهه، والرجل إذا عوّدت المشي مشت (1).

ومما لا شكّ فيه أن الخطابة ضرب من ضروب الفصاحة، بل هي مرتع خصب لها، وميدان واسع تتبدى مهارة الفصاحة من خلاله، والخطيب لا يغدو خطيباً مصقلاً إلا بمواصلة الدربة والتمرين، ومزاولة الخطابة والتمرس بأصولها والتدرب على فنونها، وما عرف عن خطيب أنه بلغ شأواً في الخطابة متميزاً إلا بعد طول دربة وتمرين وصقل، بالإضافة إلى ما حصّله من علم ومعرفة، وما اكتسبه من ملكة وطبع.

(1) الكامل، للمبرد، 532.

جاء في زهر الآداب أن أبا داود كان يقول: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تحيّر اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه»⁽²⁾. وجاء في البيان والتبيين: «... وطول الصمت يفسد اللسان، وقال بكر بن عبد الله المزني: «طول الصمت حُبسة» وقال عمر بن الخطاب رحمه الله: «ترك الحركة عُقْلَة»، وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبدلت نفسه، وفسد حسه، وكانوا يروون صبيانهم الأرجاز، ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللهاة، ويفتح الجرم [أي الحلق]، واللسان إذا أكثرت تقلبيه رقاً ولان، وإذا أقلت تقلبيه وأطلت إسكاته جساً وغلط. وقال عبّاية الجعفي: «لولا الدُّرْبَة وسوء العادة لأمرت فتياننا أن يماري بعضهم بعضاً». وأية جارحة منعتها الحركة، ولم تمرّحها على الاعتمال، أصابها من التعقّد على حسب ذلك المنع، ولم قال رسول الله ﷺ للنابغة الجعدي: «لا يفضّض الله فاك؟» ولم قال لكعب ابن مالك: «ما نسي الله لك مقالك ذلك؟» ولم قال لهيذان بن شيخ: «ربّ خطيب من عبس؟» ولم قال لحسان: «هيج الغطاريف على بني عبد مناف، والله لشعرك أشدّ عليهم من وقع السهام في غبش الظلام»⁽³⁾.

وقد يتساءل المرء أين يمارس مثل هذه الفصاحة؟ ومتى يزاوها ومع من يستطيع التدرب؟ وأنى له ذلك في هذا الزمن الذي بعد أهله عن الفصاحة والبيان؟ والجواب أن خير مكان لمزاولة الفصاحة هو المدرسة والجامعة وحلق العلم وأندية الثقافة وما أشبه ذلك، حيث ترتفع سوية الكلام، لتلائم شرف المعاني المطروحة، فالعلم على اختلاف أنواعه واختصاصاته، لا يليق به أن يعالج بلغة مبتذلة سوقية تحاكي لغة العامة في لهوهم وأسواقهم ولغظهم، وإنما يليق به أن ترتفع سوية الكلام وترقى العبارة إلى مدارج الفصاحة والبيان، مما يرقى بالعلم ويسمو به وبأهله، ويكون أنفع للطلاب وأجدى له.

وكثيراً ما يتساءل المرثون: لماذا انحدرت سوية التعليم عن ذي قبل؟ وما أسباب ضعف الطلبة والخريجين في العربية بعد طول قوة؟ والجواب يكمن في طريقة تدريسهم التي تغيرت واستبدل فيها

(2) زهر الآداب 1/148.

(3) البيان والتبيين 2/272 – 273.

الذي هو أدنى بالذي هو خير، أجل فقد غدت العاميات المتبدلة وسيلة تدريس العلوم المختلفة، حتى اللغة العربية!! فهي تدرس في كثير من المدارس والجامعات بلهجة عامية أحياناً وبلغة ركيكة ليست من الفصاحة في شيء أحياناً أخرى! فكيف يكتسب الطالب فصاحة؟ وأتى له بها؟! إن الحلّ يكمن في إعادة النظر في طرق التدريس ولغة التدريس، ولا شك أن ذلك يحتاج إلى جهود كبيرة لتأهيل المدرسين لغويًا ولإعادة النظر أيضًا بمن يؤهل للتدريس، وهي مسألة لا تخلو من صعوبة ولكنها ليست بمستحيلة إذا صحَّ العزم وصدقت النية ولاح الهدف من وراء ذلك مشرقًا ينبئ بمستقبل مشرق.

وعندما تغدو العربية هي الوسيلة الوحيدة للتعبير في قاعة الدرس يتسابق الطلبة إلى التعبير بها، ويتبارون في تجويدها، ويتفتنون في أساليب الكلام، مما يخرج ألسنتهم من طول الإسار، ويذهب عنها الحبسة والركاكة، والعيّ والفهامة، قال أبو العطاء يصف لسانه:

أَقْبَلُهُ كِي لَا يَكِلُّ بِحِسِيَّةٍ وَأَبْعَثُهُ فِي كُلِّ حَقِّ وَبَاطِلٍ

بل إن العدوى تنتقل من قاعة الدرس إلى المجالس الأخرى والأندية والمحافل، حيث يتمايز الناس بطريقة نطقهم، ولا يعلو حديث مهما سما على الحديث بالعربية المبينة، فهي التي تسيطر بسحرها وجمالها وروائها على كل أهل المجلس، فتراهم منقادين إلى من يتقن الحديث بها، مصروفين إليه، يلتذون بوقع كلامه على أسماعهم، تتجاوب معه نبضات قلوبهم، ولا غرورٍ فهي كما قال الشاعر السحر الحلال:

خَلَقَ اللِّسَانَ لِنَطْقِهِ وَبَيَانِهِ لَا لِلسُّكُوتِ وَذَاكَ حُظُّ الأُخْرَسِ

فَإِذَا جَلَسْتَ فَكُنْ مَجِيئًا سَائِلًا إِنَّ الكَلَامَ يُرِيْنُ رَبَّ المَجْلِسِ (4)

ولا يتوقف أمر الفصاحة على اللسان، وإنما يشاركه فيها القلم، فالقلم أحد اللسانين، وهو أبقي أثرًا، لأن الكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان، ويتجاوز الحدود ويرتفع على القيود.

(4) محاضرات الأدباء للأصبهاني.

فإذا تمرّس الطالب بأساليب الكتابة، حسن تعبيره وشقّ طريقه إلى امتلاك ناصية القلم، مما يعود عليه بالخير العميم، والنفع المستديم، فالكتابة تفتح آفاقاً واسعة، وتصل إلى ما لا يصل إليه اللسان، ولكنها كاللسان أو هي أعصى، لمسيس حاجتها إلى طول الدربة، وكثرة التمرين، ومعاودة التجربة، وإعادة النظر فيما يكتب، فالكاتب يطمح دائماً إلى تجويد كتابته والرقبي بها إلى مدارج البلغاء، مما يضطره إلى إعادة النظر، والحذف والتعديل، والإضافة والتذييل، ورحم الله العماد الأصفهاني إذ يقول:

«إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غدِهِ: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر» (5).

وبهذا تصقل الكتابة، وتتضح سمات الأسلوب، ويبلغ الكاتب حدّ الفصاحة والإبداع.

مهارات الكتابة باللغة العربية

تمهيد

تحتاج مهارة الكتابة إلى أصول تبني عليها، وقواعد ترشد إليها، لعل من أهمها القراءة، فمن لا يقرأ لا يكتب؛ لأن فاقده الشيء لا يعطيه، قال الجاحظ: «كل من عرف النعمة في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف». وكلما قرأ المرء وأمعن في القراءة انقادت له أساليب الكتابة، ودلّت له صعابها، واستطاع من ثم التمرّس بفنونها، والتمكّن من ناصيتها، والإبداع في مجالاتها المختلفة. وكلما بعد عن القراءة تنكّر له القلم، وجافاه الطبع، ولم يقوَ على خطّ كلمات في أيّ شأن من شؤون الحياة. ثم إن الكتابة صنعة يكتسبها طالبها بطول التمرّس والمرّانة، وليست موهبة توهب لأناس دون آخرين، فالمرء لا يُؤلّد كاتباً، بل لا بد له من التدرج في سلّم الكتابة، وسلوك مسالك الكتّاب حتى يغدو كاتباً.

(5) معجم الأدباء، مقدمة الكتاب.

ولعلّ من أسهل أنواع التمرين على الكتابة أن يعمد المرء إلى كتابة ذكرياته، وليس ذلك بالأمر الصعب، وإنما هو أن يختار كل يوم أو يومين حدثاً مرّ معه فيسجله، ويعلق عليه ببضعة أسطر وفقاً لأهمية ذلك الحدث، فقد يكتب عن صفة لأخيه أعجبتّه، أو نصيحة لأبيه وقعت منه موقِعاً حسناً، أو فائدة تلقّفها من معلمه، أو تصرّف راق له أو ساءه من صديق أو زميل، أو خبر سمعه من الأخبار، أو مقال قرأه في جريدة أو مجلة، أو منظر استرعى انتباهه في الطريق، أو غير ذلك مما تحفل به حياتنا اليومية، ويراه المرء من حوله مادام فيه عرق ينبض.

وهلّك الفتى أن لا يَرَاخَ إلى الندى وأن لا يرى شيئاً عجبياً فيعجبا

1- شروط الكتابة

ثمة شروط لا بد للكاتب أن يراعيها في كل موضوع يكتبه، وهي ضرورة لسلامة كتابته شكلاً ومضموناً، فإذا أخلّ بها أو ببعضها انعكس الخلل على كتابته مهما كان مجيداً فيها. وفيما يأتي بيانها:

1 - السلامة اللغوية:

ونعني بها أن تسلم الكتابة من الخطأ في اللغة، أو النحو، أو الإملاء. أما اللغة السليمة فيكتسبها المرء من طول ملازمته لقراءة نصوص العربية، والتمرس بأساليبها، بدءاً من القرآن الكريم، ومروراً بالحديث النبوي الشريف، وانتهاءً بكلام العرب شعراً ونثراً. وأما النحو فيتقنه من خلال دروسه التي وردت في معظم كتب النحو (كالنحو الواضح، والنحو الوظيفي، والدروس النحوي، ومثنى الأجرومية، وغيرها) ولا سيما علامات الإعراب الفرعية التي تبدو جلية في الكتابة. (ونعني بها علامات الإعراب الفرعية في الأسماء، وتشمل المثنى، وجمع المذكر السالم، والأسماء الخمسة، وفي الأفعال وتشمل إعراب الأفعال الخمسة، وصيغ فعل الأمر. هذا بالإضافة إلى مواضع أخرى متفرقة).

وأما الإملاء فهي القواعد التي ترسم بها الحروف العربية ولاسيما الهمزة في مواضعها المختلفة وما أشبه ذلك من أصول رسم الحروف.

2 - مراعاة علامات الترقيم:

ونعني بها أن يستعمل الكاتب في كتابته علامات الترقيم المختلفة، كالفاصلة، والنقطة، والأقواس، وهي تعينه على تقسيم كلامه وترتيبه، وتوضيح المراد منه في كثير من الأحيان، كما تعين القارئ على فهم ما يقرأ، وتعيّن له مواضع الفصل والوصل، والوقف والابتداء، وتنوع النبرات الصوتية في أثناء القراءة، وسيأتي ذكر هذه العلامات بالتفصيل.

3 - مراعاة الناحية الشكلية:

ونعني بها شكل الكلام المكتوب وترتيبه، بدءاً من حسن الخط، ومروراً بتقسيم النص إلى فقرات تناسب المعنى، وتستقل كل منها بفكرة رئيسية أو أفكار جزئية متقاربة، وانتهاءً بترتيب الفقرة الواحدة؛ إذ يحسن أن تميز الفقرة بترك فراغ بقدر مسافة كلمة في بداية السطر، وتنتهي بوضع نقطة في نهايتها. أما الهوامش فيراعى فيها ترك فراغ بمقدار (2-3 سم) من أعلى الصفحة، ومثله من أسفلها، وإلى جانبيها. وتنتظم السطور فلا تنبو منها كلمة، ولا تنقص كلمة عن الحد المتاح للكتابة.

4 - استيفاء عناصر الموضوع المطلوب:

وهذا ما يدخل في المضمون، ولكل موضوع عناصر يجب أن تُستوفى كاملة؛ لأن الإخلال بواحد منها يؤدي إلى نقص في الموضوع المطلوب.

قواعد رسم الهزمة

في آخر الكلمة				في وسط الكلمة				في أول الكلمة							
الهزمة	غير منونة	منونة	بعدها ألف	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
وقبلها	بالنصب	بالتنوين	تثنية الاسم					وقبلها				وقبلها			
ساكن	عِبَاءٌ	عِبَاءٌ	عِبَاءَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	ساكن	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
مفتوح	مَلَجَأٌ	مَلَجَأٌ	مَلَجَأَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	مفتوح	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
مضموم	تَبَاطُؤٌ	تَبَاطُؤٌ	تَبَاطُؤَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	مضموم	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
مكسور	قَارِئٌ	قَارِئٌ	قَارِئَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	مكسور	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
ألف	حَيَاءٌ	حَيَاءٌ	حَيَاءَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	ألف	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
واو	ضَوْءٌ	ضَوْءٌ	ضَوْءَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	واو	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
ياء	شَيْءٌ	شَيْءٌ	شَيْءَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة	ياء	مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة
	طَبِيعٌ	طَبِيعٌ	طَبِيعَانِ	مكسورة	مضمومة	مفتوحة	ساكنة		مفتوحة	مضمومة	مكسورة	الهزمة	مفتوحة	مضمومة	مكسورة

القاعدة: تكتب على مايناسب حركة ما قبلها، يستثنى:
 (١) الهزمة المنفردة قبل تنوين النصب أو الألف الاثنين فتكتب على نبرة إذا سبق حرف ينصل بما بعده.
 (٢) الهزمة فوق الألف وبعدها ألف الاثنين نقلبان مدة فوق الألف، إذا كانت الكلمة اجماً.

القاعدة: تكتب الهزمة على حرف يناسب أقوى الحركتين (حركتها وحركة ما قبلها)، سواء كان توسطها أصلياً أو عرضياً. ويستثنى من ذلك:
 (١) الهزمة المفتوحة بعد الف، والهزمة المفتوحة أو المضمومة بعد واو ساكنة فتكتب على السطر.
 (٢) الهزمة المفتوحة أو المضمومة بعد ياء ساكنة فتكتب على نبرة.

القاعدة: تكتب الهزمة فوق الألف إذا كانت مفتوحة أو مضمومة، وتحت الألف إذا كانت مكسورة، سواء سبقت بحرف أو لا. ويستثنى (لئلا - لين - هؤلاء).

قواعد العدد

أحكام العدد

الأعداد المفردة

تذكير العدد وتأتيته:

- (١) و (٢) يوافقان المعدود مفردين، ومركبين، ومعطوفاً عليهما.
- (٣-٩) تخالف المعدود مفردة، ومركبة، ومعطوفاً عليها.
- (١٠) تخالف المعدود مفردة، وتوافقه مركبة.
- (٢٠، ٣٠، ٤٠، ٩٠، ١٠٠) و (١٠٠٠) تلزم صورة واحدة، سواء كان المعدود مذكراً أو مؤنثاً.

حالة المعدود وإعرابه:

١٠-٣ جمع، مجرور بالإضافة.
٩٩-١١ مفرد، منصوب على التمييز.
١٠٠، ١٠٠٠ مفرد، مجرور بالإضافة.

تعريف العدد بـ (أل):

- إن كان العدد مضافاً أدخلت (أل) على المضاف إليه.
- وإن كان مركباً أدخلت (أل) على جزئه الأول.
- وإن كان معطوفاً أدخلت (أل) على الجزأين.

صياغة العدد على وزن (فاعل):

- (٢-١٠) مفردة تصاغ على وزن (فاعل)، لتصف ما قبلها، وتدل على ترتيبه.
- (١-٩) مركبة، أو معطوفة، يصاغ على وزن (فاعل) جزؤها الأول فقط.

إعراب العدد:

- تعرب الأعداد المفردة إعراب الاسم العادي عدا (٢) فيعرب إعراب المشي.
- ثمان وتعريفها (الثماني) اسم منقوص ولها أحكامه.
- الأعداد المركبة مبنية على فتح الجزأين عدا الجزء الأول من (١٢) فيعرب إعراب المشي.
- الصفات المصوغة من (١١) إلى (١٩) مبنية على فتح الجزأين عدا الجزء الأول من (١١) و (١٢) فإنه يبنى على السكون.
- ألفاظ العقود ملحقمة بجمع المذكر السالم، فعرب بالواو رفعاً، وبالياء نصباً وجراً.
- يعرب الجزء الأول من الأعداد المعطوفة إعراب العدد المفرد، والجزء الثاني معطوفاً عليه.

(تيف) و (بضع):

- (تيف) تدل على العقد إلى العقد الذي يليه، وتأتي بلفظ واحد للمذكر والمؤنث. نحو: قام عشرون وتيف من الرجال/النساء.
- (بضع) تدل على الأعداد (٣-٩)، فهي تخالف المعدود في التذكير والتأنيث. نحو: بضعة رجال، وبضع نساء.

حركة شين عشرة:

- الفتح إذا كان المعدود مذكراً.
- السكون إذا كان المعدود مؤنثاً.

١	طالب واحد طالبة واحدة	الطالب الأول الطالبة الأولى	١ 2 3 ...
٢	طالبان اثنان طالبات اثنان	الطالب الثاني الطالبة الثانية	
٣	ثلاثة طلاب ثلاث طالبات	الطالب الثالث الطالبة الثالثة	
:	:	:	:
١٠	عشرة طلاب عشر طالبات	الطالب العاشر الطالبة العاشرة	

الأعداد المركبة

١١	أحد عشر طالباً إحدى عشرة طالبة	الطالب الحادي عشر الطالبة الحادية عشرة	الأحد عشر طالباً الإحدى عشرة طالبة
١٢	اثنا عشر طالباً اثنا عشرة طالبة	الطالب الثاني عشر الطالبة الثانية عشرة	الاثنا عشر طالباً الاثنا عشرة طالبة
١٣	ثلاثة عشر طالباً ثلاث عشرة طالبة	الطالب الثالث عشر الطالبة الثالثة عشرة	الثلاثة عشر طالباً الثلاث عشرة طالبة
:	:	:	:
١٩	:	:	:

الأعداد المعطوفة

٢١	واحد وعشرون طالباً إحدى وعشرون طالبة	الطالب الحادي والعشرون الطالبة الحادية والعشرون	الواحد والعشرون طالباً الإحدى والعشرون طالبة
٢٢	اثنان وعشرون طالباً اثنان وعشرون طالبة	الطالب الثاني والعشرون الطالبة الثانية والعشرون	الاثنا والعشرون طالباً الاثنا والعشرون طالبة
٢٣	ثلاثة وعشرون طالباً ثلاث وعشرون طالبة	الطالب الثالث والعشرون الطالبة الثالثة والعشرون	الثلاثة والعشرون طالباً الثلاث والعشرون طالبة
:	:	:	:
٩٩	:	:	:

ألفاظ العقود

٢٠	عشرون طالباً/طالبة	الطالب/الطالبة العشرون	العشرون طالباً/طالبة
٣٠	ثلاثون طالباً/طالبة	الطالب/الطالبة الثلاثون	الثلاثون طالباً/طالبة
:	:	:	:
٩٠	:	:	:

المئة والألف

١٠٠	مئة طالب/طالبة	الطالب/الطالبة المئة	مئة الطالب/الطالبة
١٠٠٠	ألف طالب/طالبة	الطالب/الطالبة الألف	ألف الطالب/الطالبة

أحكام متفرقة:

- ترد المئة والألف معدودين أيضاً، وتنطق على العدد الذي قبلهما الأحكام السالفة، نحو: ستة آلاف وسبعمئة رجل/ امرأة.
- الأحسن في قراءة العدد أن يقرأ من اليمين إلى اليسار، نحو: ١٩٤٥ نقول: عام خمسة وأربعين وتسعمئة وألف، أو سنة خمس وأربعين وتسعمئة وألف.
- الكسور مذكورة، وتنطق عليها الأحكام السابقة، نحو: خمسة أسداس، وثلاثة أرباع.
- المفرد هو الأصل في التذكير والتأنيث، فنقول: ثلاث مزارع، وثلاثة أقلام.